الزوج

حق المرأة

الكلام عن زوج يستدعي الكلام عن مكانة امرأة عند رجل ، ومكانة النساء عامة عند الرجال عامة .

وإنما تعرف مكانة المرأة التي وصلت إليها بفضل محمد ﷺ ودينه ، متى عرفت مكانة المرأة التي استقرَّت عليها الجاهلية ، ومكانة المرأة التي استقرَّت عليها في عصر النبي ﷺ وبين أمم أخرى غير الأمم العربية .

قياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية، وما صارت إليه بعد رسالة محمد ﷺ :

كانت متاعاً يُورَث ، ويُقَسَّم تقسيم المواشي بين الورثة فأصبحت بفضل الإسلام ونبيه ﷺ صاحبة حق مشروع ، تَرث وتُوَرّث ولا يمنعها الزواج أن تتصرَّف بمالها وهي في عصمته كما تشاء ، وكانت تُدْفن في مَهْدها فراراً من عار وجودها ، أو فراراً من نفقة طعامها فأصبحت إنساناً مَصُون الحياة يُعَاقب من أصابه بمكروه .

ولم تكن المرأة في البلاد الأخرى بأسعد حظاً منها في البلاد العربية .

فلا نذكر شرائع الرومان استعبدت النساء ، ولا بعض المبالغين في عصور المسيحية الأولى الذين وصفوا المرأة بالنجاسة وجردوها من الروح ، وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذي قيل فيه أنه عصر المرأة الذهبي بين الأمم الأوربية ، وأن الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال .

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له : عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة أو عصر " السيدة المُفْداة " .

وقد أجمله جون لانجدون دافيز صاحب " التاريخ الموجز للنساء " فقال : " إن عصر الفروسية كان معروفاً بما لُوحظ فيه من فقدان الشباب على الجملة الاهتمام بالجس الآخر ، ولعلنا نُقل من الدهشة لذلك لو أننا فهمنا كلمة الفروسية وذكرنا إنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيل على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه ، فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان في عصر الفروسية إلا على اعتبار أنها عنوان ضَيْعة " .

إلى القارئ محادثة من كتاب أغاني الآداب والتحيات Chonson de Geste يروي فيها : أن ابنة أوسيس جلست في نافذتها ذات يوم فمرَّ بها فَتَيَان هما : جاران وجربرت ، وقال أحدهما : " انظر .. انظر يا جربرت ، وحق العذراء ما أجملها من فتاة . دون أن يلتفت بوجهه ، وعاد صاحبه يقول مرة أخرى : " ما احسبني رأيت أبداً فتاة بهذا الحسن ، ما أجمل هاتين العينين السوداوين " وانطلقا وجربرت يقول : ما أحسب أن جواداً أبداً يماثل هذا الجواد " . وهي حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة ، إذ قلة الاهتمام تورث الاحتقار .

والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الاحتقار . وإليك مثلاً حادثة في الكتاب السابق يروي فيها : أن الملكة " بلانشفلور " ذهبت إلى قرينها الملك " بيبن " تسأله معونة أهل اللورين ، فأصغى إليها الملك ثم احترق غضباً، وضربها على أنفها بقبضة يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم، وصاحت تقول : " شكراً لك أن . أرضاك هذا فأعطني من يدك ضربة أخرى حين تشاء " .

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيراً ما تتكرر كانها صيغة محفوظة ، وكأنها كانت ضربة بقبضة اليد جزاء كل امرأة تجرأت في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة .

" ... ومتى كانت المرأة تزف إلى زوجها وكثيراً ما تزف إلى رجل لم تره قبل ذلك ؛ إما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكري ، أو لتسهيل صفقة من صفقات امتلاك قطعة من الأرض ، ومتى كانت بعد زفافها إلى فارسها مجنون بالحرب قليل الذكاء قد يكون في معظم الأحوال من الأميين ، عُرْضة للصرب كلما واجهته بمخالفة، أترى سيدة القصر إذن واجدة لها رحمة أو ملاذاً من حياة الشقاء أو من صحبة زوج ليس بأهل ؟ " .

ولقد تقَّدم الزمن في الغرب من العصور الوسطى إلى عصور الفروسية إلى ما بعدها من بداية العصر الحديث ولم تزل المرأة في منزلة حقيرة لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة في تلك الجاهلية ، ففي سنة ١٧٩٠م بيعت امرأة في أسواق انجلترا " بشلنين " لأنها ضاقت بمعيشتها في الكنيسة التي كانت تؤويها .

وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢، محرومة من حقها الكامل في تملك العقار وحرية المقاضاة .

وكان تعلم المرأة عيب تشمئز منه النساء قبل الرجال ، فلما كانت " اليصابات بلاكويل " تتعلم في جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ – وهي أول طبيبة في العالم – كانت النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويرفضن أن يكلمنها ، ويجمعن أطراف ملابسهن من طريقها احتقاراً لها ، كأنها متحرزات من نجاسة يتجنبن مساسها .

ولما اجتهد بعضهم في إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة " فلادلفيا " الأمريكية، أعلنت الجماعة الطبية أنها تصادر كل طبيب قبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء .

وهكذا تقدَّم الغرب إلى أوائل عصرنا الحديث ، ولم تتقدَّم المرأة فيه تقدماً يرفعها من الاستعباد الذي استقرَّت فيه من قبل الجاهلية العربية .

فماذا صنع محمد ﷺ ؟ وماذا صنعت رسالة محمد ﷺ ؟

وحكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق جزاء ما فرض الله عليها : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] وحكم آخر من أحكامه المالية أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهة عند زوجها ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩] وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء:٣٢] ولم يفضّل الرجل عليها إلا بما كلفَّه من واجب كفالتها والسهر عليها [1] أما محمد ﷺ فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ." [صحيح الترمذي] وأمر بإخفاء ضعفها ونقصها : " إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا " [صحيح مسلم] .

وأوجب على الرجل أن يتجمَّل لامرأته ، ويبدو لها في المنظر الذي يعجبها فقال النبي ﷺ مما قال في هذا المعنى وهو كثير : " اغسلوا ثيابكم ، وخذوا شعوركم ، واستاكوا وتزينوا ، فَإن بني إِسْرَائِيل لم يَكُونُوا يَفْعَلُونَ فزنت نِسَاؤُهُم " [حديث موضوع رواه ابن عساكر] .. وأوجب على الرجل إذا خطب امرأة أن يظهرها على عيبه إن كان به عيب مستور : " إذا خطب أحدُكم المرأةَ وهو مخضبٌ بالسوادِ فليُعْلِمْها أنه يخضبُ " [الحديث موضوع] [2]

---

(1) يقول تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤] أي:الرجال يقومون على شئون النساء بالحفظ والرعاية والنفقة.

(2) إذا كان العقاد يريد ذكر ما يدل على النهي عن الصبغ بالسواد فكان عليه أن يستشهد بالأحاديث الصحيحة مثل قول النَّبيِّ ﷺ : " يَكُونُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَخْضِبُونَ بِهذا السَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الْحَمَامِ لا يَجِدُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّة " [صححه الذهبي والألباني] وإن كان العقاد يريد ذكر تحريم غش الناس وخداعهم فكان عليه أن يستشهد بقوله ﷺ : " من غشَّنا فليس منَّا " [صحيح مسلم] وإذا أراد أن يعرف رأي العلماء في الصبغ بالسواد فكان عليه أن يرجع إلى الفقهاء الذين=

وبلغ من رعاية ﷺ شعور المرأة وحيائها الذي فطرت عليه أنه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه ؛ لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها : " إذا جامعَ أحدُكم أهلَهُ فليَصْدُقْها ثم إذا قضَى حاجتَهُ قبلَ أن تُقضَى حاجتُها فلا يُعْجِلْهَا (يتعجَّل عليها) حتى تَقضِيَ حاجتَها " [ضعيف الجامع الصغير] .

وكان ﷺ يعلم المسلمين كيف يترفقون بنسائهم فيقول : " إذا دخلْتَ ليلاً ، فلا تدخلْ على أهلِك ؛ حتى تستَحِدَّ المُغِيبَةُ (تزيل المرأة التي غاب عنها زوجها ما يجب إزالته من شعر الجسد) ، وتمتشطَ الشَّعِثَةُ (تصلح شعرها) " [متفق عليه]

معاملته لزوجاته

كان ما أوجبه النبي ﷺ على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم أقل بكثير مما أوجبه هو على نفسه في معاملة زوجاته فكان يحب أن يرى الابتسامة في وجوههن ، ويزورهن جميعاً في صباح والمساء وإذا خلا بهن " كانَ إذا خَلا بنسائِه ألينَ الناسِ، وأكرمَ الناسِ، ضحَّاكًا بسَّامًا " كما قالت عائشة [ضعيف الجامع الصغير] .

ولم يجعل من هيبة النبوة سدّاً بينه وبين نسائه بل أنساهن برفقه ومؤانسته أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحايين فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : " تكلم ولا تقل إلا حقا ... " (١) ومن تراجعه أو تغاضبه نهارها ومن تبلغ في التجرؤ عليه ما

=قالوا بجواز استعمال الصبغ بالسواد في الحرب والجهاد ، ومنع وذم استعماله للتلبيس والخداع ، كأَنْ يفعله رجل أو امرأة عند الخِطْبة تدليساً ، أما الاستشهاد بالموضوع فهذا مما لا يجوز .

(1) روى الطبراني بسند ضعيف " جرَى بينه ﷺ وبين عائشةَ كلامٌ، حتَّى أدخلا بينهما أبا بكرٍ رضي اللهُ عنه حكَمًا ، واستشهده فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ تُكلِّمين أو أتكلَّمُ ؟ فقالت : بل تكلَّمْ أنت ولا تقُلْ إلا حقًّا فلطمها أبو بكرٍ حتَّى دَمِيَ فوها ، وقال : يا عَدِيَّةَ نفسِها أوَيقولُ غيرَ الحقِّ ، فاستجارت برسولِ اللهِ ﷺوقعدَتْ خلفَ ظهرِه فقال له النَّبيُّ ﷺ لم ندْعُك لهذا ولا أردنا منك هذا.

يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدته فيعجب لهم ويهم بان يضرب ابنته حفصة لأنها تجترئ كما يجترئ الزوجات الأخريات [1] ، وإذا رأى النبي ﷺ غضباً كهذا كفَّ من غضب الأب وقال له : " ما لهذا دعوناك " [2]

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن أو كما قال : " خدمتك زوجتك صدقة " [3]

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من المساواة بين إحداهن وسائرهن وهو ميل قلبه " اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمي فِيمَا أملك ، فَلا تلمني فِيمَا تملك وَلا أملك " [صحيح ابن حبان] .

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث إليهن فتلطف في سؤالهن : " أَيْنَ أَنَا غَدًا أَيْنَ أَنَا غَدًا " [متفق عليه] ليقلن عند عائشة ويأذنَّ له في الإقامة ببيتها ، ولو أنه أحلَّ لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان في ذلك من حرج .

---

(1) قال عمر بن الخطاب مخاطباً النبي : " أَطَلَّقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نِسَاءَكَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ لَا فَقُلْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَوْ رَأَيْتَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ فَتَغَضَّبْتُ عَلَى امْرَأَتِي يَوْمًا فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي فَقَالَتْ مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ فَقُلْتُ قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكِ مِنْهُنَّ وَخَسِرَ أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاهُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا لِغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ لَا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْسَمُ مِنْكِ وَأَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكِ فَتَبَسَّمَ أُخْرَى فَقُلْتُ أَسْتَأْنِسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ " [صحيح مسلم]

(2) أنَّ النبيَّ ﷺ دعا أبا بكرٍ فاستعذَرَهُ من عائشةَ فبينا هما عندَهُ قالت إنكَ لتقولُ إنكَ لنبيٌّ فقام إليها أبو بكرٍ فضربَ خَدَّهَا فقال النبيُّ ﷺ مَهْ يا أبا بكرٍ ما لهذا دَعَوْنَاكَ "[ضعفه الألباني]

(3) ذكر العقاد هذا الحديث وقد وضعه بين علامتى التنصيص " .... " دلالة على نقل الحديث بنصه مع أن كلمة "زوجتك" خطأ لغوي شائع ما كان الكاتب لينسبه لنبي أفصح العرب والصواب "زوجك" وهذا ما ذكره ابن عمر عن النبي"خِدمَتُكَ زَوجَكَ صدَقةٌ"[ضعيف الديلمى]

والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه في حالة الرضى خلق لا يصعب فهمه على كثيرين .

إلا أن الخلق الذي يصعب فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر فهذه الصفة لا تصل إليها الحضارة الحديثة مهما ارتقت لن تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من العاملة من المعاملة التي أثرت عن النبي ﷺ في قصة عائشة بنت الصديق وهي أحب نسائه إليه ، ونلخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضي الله عنها : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ .. فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي .. وَقَفَلَ دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي .. قَدْ انْقَطَعَ فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ قَالَتْ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلا مُجِيبٌ فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي وَ وَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ (قوله إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ قَالَتْ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ .. فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ لا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ يَرِيبُنِي

(يُشَكِّكُنِي) فِي وَجَعِي أَنِّي لا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تِيكُمْ (أَحْوَالُكُم) ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ (شَفِيتُ مِنْ المرض) فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ .. فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا (ثَوْبها) فَقَالَتْ تَعِسَ مِسْطَحٌ فَقُلْتُ لَهَا بِئْسَ مَا قُلْتِ أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَتْ أَيْ هَنْتَاهْ وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ قَالَتْ وَقُلْتُ مَا قَالَ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ كَيْفَ تِيكُمْ فَقُلْتُ لَهُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ قَالَتْ وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا قَالَتْ فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لأُمِّي يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ قَالَتْ يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً (جَمِيلَة) عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا قَالَتْ فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا قَالَتْ فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ (يَتَوَقَّف) لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ثُمَّ .. وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ أُسَامَةُ أَهْلَكَ وَلا نَعْلَمُ إِلا خَيْرًا وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ قَالَتْ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ .. فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ قَالَتْ وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى إِنِّي لأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي قَالَتْ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ قَالَتْ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ قَالَتْ فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتِ

أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَتْ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي (تَوَقَّف) حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً فَقُلْتُ لأَبِي أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ فَقَالَ أَبِي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لأُمِّي أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ قَالَتْ أُمِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ كَثِيرًا إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لا تُصَدِّقُونِي وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي فَوَاللَّهِ لا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلا إِلا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا فَوَاللَّهِ مَا رَامَ (مَا بَرِحَ) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ وَلا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ (التَّعَب) حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ (يَنْزِل) مِنْهُ مِنْ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ (اللُّؤْلُؤ) وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ قَالَتْ فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ قَالَتْ فَقَالَتْ لِي أُمِّي قُومِي إِلَيْهِ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لا أَقُومُ إِلَيْهِ فَإِنِّي لا أَحْمَدُ إِلا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَتْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الْعَشْرَ الآيَاتِ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ إِلَى قَوْلِهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ " [متفق عليه واللفظ للبخاري] (١)

---

(1) هذا نص الحديث مختصراً ، أما النص الذي ذكره العقاد فقد استبدل كلمات من عنده ببعض كلمات الحديث !

تلك هي القصة التي عُرِفَت بقصة الإفْك كما روتها لنا السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهي تبين لنا عمق المروءة والرفق في معاملة النبي ﷺ لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين ، فليس النبي ﷺ هنا في حالة الرضى التي تلين معه الطباع، ولا تستغرب معها المودة والحلم ، ولكنه في حالة تثير الحمية والنقمة فلم يكن في هذه الحالة إلا كرماً خالصاً بما سلك في أمر نفسه وفي أمر أهله وفي أمر دينه ، ولم يترك لحليم من حُلَماء الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع إليه في جميع هذه الغايات . سمع النبي ﷺ حديثاً يدور بين المنافقين وينتقل إلى المسلمين بل إلى خاصة الأقربين: حديثاً يسمعه رجل كعلي بن أبي طالب في برِّه وكرم طبيعته فلا يرى بعده حَرَجاً من الطلاق والنساء كثيرات .

سمع النبي ﷺ ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير دليل ولم يرفضه بغير بيِّنه ، وكان عليه أن يزور زوجته المريضة أو يهجرها إلى حين ، فزارها ورفق بها ولم يفاتحها في مرضها بما يدور في نفسه ، ويظل يسأل عنها وينتظر أن تشفى وأن تأتيه البيِّنة ، ولا يجعله كلام الناس أن يتخذ في هذا الموقف الأليم بما توجبه الحمية وسأل من يجب أن يسأل : عَلِيّاً وأسامة وهما بمقام ولديه . وبريرة الجارية التي تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدتها ، وضُرَّة لعائشة تنافسها وتكاد تشبهها في مكانتها لديه : زينب بنت جحش التي في كانت أسرع من يقول لو علمت شيئاً يقال . فاستعاذت بالله وقالت : " يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا" [متفق عليه] .

وعلمت عائشة بحديث الناس فاستأذنته ﷺ في زيارة أهلها ، وآن له أن يفاتحها وقد وصل الخبر إلى سمعها ، ولم يكن الوقت مناسباً قبل ذلك وهو يكتم ما في قبله مخافة أن يؤذيها بغير حق وهي تشكو مرضها . لكن بعدما علمت فاتحها لتبرئ نفسها أو تستغفر الله ، وغضبت غضب البريء المشكوك فيه وإنها لبريئة في نظر

كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرِّض نفسها لهذه الشكوك أما جيش ، وفي وضح النهار ، ولغير ضرورة ، ومع رجل من المسلمين بتقي ما يتقيه المسلم في هذا الموقف من غضب النبي ﷺ وغضب المسلمين وغضب الله تعالى ، فتلك صفة تتنزه عنها من هي أقل من عائشة نشأة ومنزلة وخلقاً وعزَّة فما فبالك بعائشة في منزلتها المعروفة . إلا أن النبي ﷺ أراد لها البراءة أمام الخلق عامة ، وأمام نفسه المحبة ، حذراً أن تكون تبرئته لها عن محبة وضعف لا عن بيِّنة وتوثيق فلما تبين له الحق كان كريماً رحيماً حتى بالذين خاضوا في حديث الإفك ، وما أحد أرحم ممن يرحم المفترون على سمعة أهله ، ولا يعذر الناس أحداً كما يعذرون نبياً مُطاعاً ينال في عرضه فيعاقب بالعدل من استحقوه .

سماحة الكريم

لقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات مختلفة أن عبد الله بن أبي سلول كان أكبر المتكلين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد مُبَيَّت للنبي ﷺ ودينه، وكان هذا الرجل كما سبق أن ذكرنا في بعض فصول هذا الكتاب مكروهاً إلى المسلمين متهماً عندهم ويسمونه رأس المنافقين ولا يكفُّون عن طلب دمه واستئذان النبي ﷺ في قتله فما ضرَّ النبي ﷺ لو خلَّى بينه وبين المسلمين يحاسبونه على كذبه ويحاسبونه على كيده وينتقمون لعِرض النبي ﷺ منه ليأمنوا شرَّه ويجعلوه عبرة لغيرة ؟ وإذا قيل : إن عبد الله بن أبي كان من أصحاب المكانة في قومه تلك المكانة التي يحسب حسابها فلماذا يقال في " مِسْطَح " وهو الذي ينفق عليه أبو بكر؟ ما الذي أنجاه من الغضب والعقاب ويضمن له المعونة لولا سماحة النبي ﷺ وسماحة أبي بكر وسماحة القرآن [1]

---

(1) سماحة القرآن الكريم هي التي حملت أبا بكر على السماحة والكرم .

على أن العَصَبيَّة التي كان عبد الله بن أبي يحتمي بها لم تكن لتحميه من عقاب النبي ﷺ لو أراد أن يعاقبه ، فما من عصبية هي أقرب من رحم الرجل واولى بالدفاع عنه من ولده المشهور ببره ، وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد تطوَّع لقتله يوم قيل له أن النبي ﷺ يهدر دمه ويقضي بموته [1] إنما هي سماحة الكريم التي شملت مِسْطَحاً كما شملت كبير المنافقين ، وخرجت من حديث الإفك كله بالعفو عن جميع المسيئين ، وكشفت عن أطيب معاملة للزوجات في أحرج الحالات ، وتلك هي المعاملة الطيبة في مثلها الأعلى ، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور ، بل تطول مدى السنين ، وتطول مدى السنين مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة ، وتطول جميع الحالات ومنها حالة الألم البالغ ولا تنحصر في حالة الرضى والطمأنينة ، وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج في العصر الذي وصفوه بعصر المرأة ، لكثرة ما بالغ فيه المبالغون من إكبار شانها والدعوة إلى إنصافها .

تعدد الزوجات

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبي وهو الهدف الثاني الذي يرميه المُشَهِّرُون بالإسلام فيكثرون من رميه كلما تكلَّموا عن أخلاق محمد ﷺ وذكروا منها ما يزعمونه منافياً لصفات النبوة ﷺ ، مخالفاً لما ينبغي لما أن يتصف به أصحاب الأرواح الهادئة السيف والمرأة !

كانهم يردون أن يجمعوا على النبي ﷺ بين الاستسلام للغضب ، والاستسلام للهوى ، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء .

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه .

---

(1) النبي ﷺ لم يهدر دم عبد الله بن أبي بل على العكس فلقد منع عمر بن الخطاب من قتله : " قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ أَوَقَدْ فَعَلُوا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ " [متفق عليه واللفظ للبخاري]

أما المرأة فالتُّهمة فيها أضعف من التُّهمة في السيف على ما نراه ؛ لأن الاستسلام للشهوة آخر شيء يخطر على بال الرجل المحقق – مسلما كان أو غير مسلم – حين يبحث في تعدد زوجات النبي ﷺ وفيما يدل عليه ذلك التعدد ، وفي أسبابه .

قال لنا بعض المستشرقين : " أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية .

قلنا : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر جنسيّاً لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمداً ﷺ بأنه مفرط جنسيّاً لأنه جمع بين تسع نساء .

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضرراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما تلهمه غريزة أخرى . أرأيت إلى السمك وهو يعبر الماء المالح في موسمه المعلوم فيطوي ألوفاً من الكيلو مترات ليصل إلى فتحة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود من حيث أتى ؟

أرأيت إلى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته إلى وطنه ؟

أرأيت إلى الزهر وهو يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل حبوب لقاحه ؟

أرأيت إلى سُنَّة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هي سُنَّتها إن لم تكن هي سُنَّة الألفة بين الجنسين؟ وأين يكون اعتدال الفطرة إن لم يكن على النحو؟

فحب المرأة لا عيب فيه ، هذا هو الفطرة السوية لا شك في ذلك .

وإنما العيب أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن الاعتدال . وحتى يشغل المرء عن غرضه فهو عند ذلك تشويه للفطرة المستقيمة يُعاب كما يُعاب الظُّلْم في جميع الطِّباع. فمن الذي يعلم ما صنع النبي ﷺ في حياته ، ثم يظن أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟

مَنْ مِنْ بناة التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدولة الإسلامية ؟

ومن ذ الذي يقول إن هذا عمل رجل مشغول ؟

عمَّ شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من العمل فوصل فيه منزلة محمد ﷺ في عمله ؟

فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ، ويعطي المرأة حقها، فهذا كمال وليس بعيب ، فليست شريعة هؤلاء المنتقدين بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس في عامة العصور .

وأعجب شيء أن يقال عن النبي ﷺ أنه استسلم للذات الحسية ، وقد وأشك أن يطلق نساءه ، أو يخيِّرهن في الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها .

فقد شكون أنهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة .

وذهب إليه أبو بكر يوماً يَسْتَأْذِنُ عَلَيه فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ قَالَ فَأُذِنَ لأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا قَالَ فَقَالَ لأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ (ضربت) عُنُقَهَا فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا كِلاهُمَا يَقُولُ تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ فَقُلْنَ وَاللَّهِ لا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ حَتَّى بَلَغَ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ قَالَ فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فَقَالَ يَا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ قَالَتْ وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَتَلا عَلَيْهَا الآيَةَ قَالَتْ أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ " [صحيح مسلم] ثم خيَّر نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يفزن بما هو أنعم منها .

علام يدل هذا ؟

نساء محمد ﷺ يشكون قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات .

أهذا فعل رجل يستسلم للذاته الحسية ؟

أما كان يسيراً عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقون أن إرادة الرسول ﷺ من إرادة الله ؟

وماذا كلَّفه الاحتفاظ بالنساء حتى يُقال إنه كان يُفْرِط في ميله إلى النساء ؟ هل كلَّفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته ، أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟

لم يكلفه شيئاً من ذلك ، ولم يشغله عن أعماله العظيمة والصغيرة ولم نر هنا رجلاً تغلبه لذاته الحسية كما يزعم المُشَهِّرون ، بل رأينا رجلاً يغلب تلك الملذات في طعامه ومعيشته وفي ميله إلى نسائه ، فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تكلفه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة سعة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي ﷺ عليها لو أراد .

رجل الجد والرصانة

وهكذا نبحث عن الرجل الذي توهمه المُشَهِّرُون من مؤرخي أوربا فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور نرى رجلاً كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ، ثم يُقَال إنه رجل غلبته لذته الجسدية !

ونرى رجلاً تجمعت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحلين بها لعينيه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه !

ونرى رجلاً فضَّل معيشة الكفاف (القوت الضروري) والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التي كانت في وسعه ، ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه !

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاما مضحكاً مستغرباً لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح ، أو لعله أقبح فلاح .

ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولاً قبل زواجه ولا بعد زواجه فتتخبط فيه الظنون . فمحمد ﷺ كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة .كان معروفاً من صباه إلى كهولته، فلم يُعْرف عنه أنه استسلم للذات الحس في ريعان صباه ، ولم يُسْمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يُباح ، بل عُرِف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من الكارهين له تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذي كان من شأنه مع النساء كيت .. وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات .. كلا لم يقل أحد هذا ، ولو كان قد حدث لجرى على لسان ألف قائل .

ولما تزوج بأولى زوجاته خديجة لم تكن لذات الحس هي التي سيطرت على هذا الزواج ؛لأنه تزوجها وهي في نحو الأربعين وهو في نحو الخامسة والعشرين، وزاد على الخمسين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة في الزواج بأخرى ، ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء المرء للذات حس ، أو ذكرى متاع جميل لأنه فضَّلها على عائشة في صباها وهي أحب نسائه إليه ، وكانت عائشة تغار منها في قبرها ، فلم يكتمها أبداً أنه يفضِّلها عليها .

قالت له مرة : هل كانت إلا عجوزاً بدَّلك الله خيراً منها ، فقال لها غاضباً : " لا والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء " (١)

---

(1) نص الحديث هو : عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى [عَلَيْهَا] فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَ: فَغِرْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِين قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا؟ قَالَ: مَا أَبْدَلَنِى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا قَدْ آمَنَتْ بِى إِذْ كَفَرَ بِى النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِى إِذْ كَذَّبَنِى النَّاسُ، وَوَاسَتْنِى بِمَالِهَا إِذْ أَخْرَجَنِى النَّاسُ، وَرَزَقَنِى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِى أَوْلاَدَ النِّاس " [حديث صحيح رواه أحمد]

فلهذا أحبَّ خديجة ، ووفى لها ، ولم يمح ذكراها من نفسه أبداً من أعقبتها من الزوجات الفتيات : وفاء قلب ، وليست لذات حس ، ولا ذكرى متاع جميل .

أسباب تعدد زوجاته

لو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي ﷺ بعد وفاة خديجة لكان الأجدر بإرضاء هذه الملذات أن يجمع النبي ﷺ إليه تسعاً من الفتيات الأبكار اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية ، فيسرعن إليه راضيات .فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة. ولكنه لم يتزوج بكراً قط غير عائشة رضي الله عنها ، ولم يكن زواجه بها مقصوداً في بداية الأمر حتى رغبته فيه " خولة بنت حكيم " التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة . قالت عائشة رضي الله عنها : " لَمَّا هَلَكَتْ (تُوفِّيت) خَدِيجَةُ جَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا تَزَوَّجُ ؟ قَالَ مَنْ ؟ قَالَتْ إِنْ شِئْتَ بِكْرًا وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبًا ؟ قَالَ فَمَنْ الْبِكْرُ ؟ قَالَتْ ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكَ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ وَمَنْ الثَّيِّبُ ؟ قَالَتْ سَوْدَةُ ابْنَةُ زَمْعَةَ قَدْ آمَنَتْ بِكَ وَاتَّبَعَتْكَ " [رواه أحمد وحسنه الذهبي] .

ثم كانت سودة هي أولى النساء اللاتي تزوجهن بعد وفاة خديجة ، وكان زوجها الأول ، ابن عمها ، قد تُوفِّي بعد رجوعه من الهجرة إلى الحبشة ، وكانت هي من أسبق النساء إلى الإسلام ، فآمنت وهجرت أهلها وهاجر بها زوجها إلى الحبشة فراراً من ظلم المشركين له ولها ، فلما مات لم يبق لها إلا أن تعود إلى أهلها فترتد عن الإسلام وتؤذى ، أو تتزوج بغير كفؤ ، أو كفؤ لا يريدها فتزوجها النبي ﷺ حماية لها، وتأليفاً لأعدائه من أهلها ، وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر إلى لذات حس ، ومال إلى متاع .

وكانت للنبي ﷺ زوجة أخرى اتصفت بالجمال والشباب وهي زينب بنت جحش ابنة عمته ﷺ ، والتي تزوجها زيد بن حارثة بأمر النبي وعلى غير رضى من زينب لأنها

هي ذات حسب وقرابة من رسول الله وزيد غلام عتيق ، هذه أيضاً لم يكن للذات الحس المزعومة دخل في زواج النبي ﷺ بها بعد أن طلقها زيد ، ولو كان للذات الحس دخل في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي ﷺ أن يتزوجها ابتداءً ولا يرغِّبها في الزواج من زيد وهي ترفضه ؛ فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ، ولا يفاجئه من حسنها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيداً وشدَّد عليها في قبوله .

فلما اختلف الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه كان زواج النبي ﷺ بها " حلاً لمشكلة " منزلية بين من يعتبره بمنزلة ابنه ، وابنة عمة أطاعته في زواج لم يكتب له التوفيق . (١)

---

(1) يحكي القرآن الكريم قصة طلاق زينب من زيد وزواج النبي ﷺ بها فيقول تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] النبي ﷺ هو الذي زوَّج زيداً من زينب على غير رغبة منها ، وعندما كان زيد يشتكي من سوء معاملة زوجته له ورغبته في طلاقها كان النبي ﷺ يأمره بعدم فعل ذلك ويقول له : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ ويأمر الله تعالى نبيه أن يسمح لزيد بطلاق زينب بناء على رغبة الزوجين كليهما وفي هذا تشريع بوجوب الطلاق إذا استحالت العِشْرة بين زوجين وكان الطلاق هو الحل لمشاكلهما الزوجية ، ثم يأمر الله تعالى رسوله أن يتزوج بزينب زوجة متبنَّاه ؛ ليقرَّ تشريعاً آخر وهو إبطال عادةً التبني الجاهليةً، وقد دفع النبي ﷺ ثمن إبطال هذه العادة على غير رغبة منه فعادات الناس وتقاليدهم لا تُقِرُّ مثل هذا الزواج إذ كيف يتزوَّج الإنسان زوجة ابنه المتبنى؟ شيءٌ لا يحتمل في عرفهم ، وهذا معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . ثم يبين الله تعالى أن زواج رسول الله ﷺ بزينب مطلقة متبناه أمر إلهي وليس رغبة النبي ﷺ ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ ثم يبين الله تعالى لنبيه الحكمة من هذا الزواج ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا ﴾ هذه هي الحكمة من زواج رسول الله ﷺ من زينب كما ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز ، والتي لم يذكر العقاد عنها شيئاً .

أما سائر زوجاته ﷺ فما من واحدة منهن ، رضي الله عنهن ، إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة . فأم سلمة : كانت سيدة مُسنَّة يوم خطبها الرسول ﷺ كما قالت معتذرة له لإعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها ، جَبْراً لخاطرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه في غزوة أحد وحزنت عليه حزناً شديداً فقال رسول الله ﷺ لها مواسياً : " سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك ، وأن يخلفك خيراً " فقالت : " ومن يكون خيراً من أبي سلمة ؟ " [1] فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبي سلمة ، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فاعتذرت ، وهما أعظم المسلمين قدراً بعد النبي ﷺ.

وجويرية بنت الحارث سيد قومه كانت إحدى الأسيرات في غزوة بني المصطلق فتزوجها النبي ﷺ ليعتقها ، ويحض المسلمين على عتق أسراهم تفريجاً عنهم وتأليفاً لقلوبهم فأسلموا جميعاً وحسن إسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء في حرم رسول الله فاختارت البقاء مع رسول الله . [2]

---

(1) نص الحديث كما جاء في صحيح ابن ماجه ، (وأخرج مسلم نحوه في صحيحه) : " عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ حَدَّثَهَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَفْزَعُ إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ عِنْدَكَ احْتَسَبْتُ مُصِيبَتِي فَأْجُرْنِي فِيهَا وَعَوِّضْنِي مِنْهَا إِلَّا آجَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَعَاضَهُ خَيْرًا مِنْهَا قَالَتْ فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ ذَكَرْتُ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ عِنْدَكَ احْتَسَبْتُ مُصِيبَتِي هَذِهِ فَأْجُرْنِي عَلَيْهَا فَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ وَعِضْنِي خَيْرًا مِنْهَا قُلْتُ فِي نَفْسِي أُعَاضُ خَيْرًا مِنْ أَبِي سَلَمَةَ ثُمَّ قُلْتُهَا فَعَاضَنِي اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَآجَرَنِي فِي مُصِيبَتِي " .

(2) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ الْمُصْطَلِقِ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ أَوْ ابْنِ عَمٍّ لَهُ فَكَاتَبَتْ عَلَى نَفْسِهَا .. فَجَاءَتْ تَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي كِتَابَتِهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا جَوَيْرِيَةَ بِنْتُ الْحَارِثِ، وَقَدْ كَانَ من أمري مالا يَخْفَى عَلَيْك، وَإِنِّي وَقَعْت فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَإِنِّي كَاتَبْت عَلَى نَفْسِي، فَجِئْت أَسْأَلُك فِي كِتَابَتِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "فَهَلْ لَك إلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ" ؟ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: "أؤدي عنك=

وحفصة بنت عمر : مات زوجها فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت ، وعلى عثمان فسكت وشكا عمر حزنه للنبي ﷺ فلم يكن للنبي ﷺ أن يبخل على صديقه بالمصاهرة التي شرَّف بها أبا بكر قبله ، وقال يتزوج حفصة من هو خير من أبي بكر وعثمان . (١)

ورملة بنت أبي سفيان : تركت أباها لتسلم ، وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها إلى الحبشة ، ثم تنصَّر زوجها وطلَّقها وهي غريبة هناك بغير عائل فأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي في طلبها (٢) لينقذها من ضياع الغربة ، وضياع الأهل ، وضياع الزوج ،

=كتابك، وَأَتَزَوَّجُكِ" ؟ قَالَتْ: نَعَمْ يَا رسول الله، قال: "قَدْ فَعَلْت" ، قَالَتْ: فَتَسَامَعَ النَّاسُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ، فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ يَعْنِي مِنْ السَّبْيِ فَأَعْتَقُوهُمْ، وَقَالُوا: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَتْ: فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا، أُعْتِقَ فِي سَبِيلِهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ "[صحيح أبي داود وغيره]

(1) عن عبدِ الله بن عمر: أنَّ عمرَ حِيْنَ تأيَّمَتْ بِنْتُهُ حَفْصَةُ (صارت بلا زوج)، قَالَ : لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ ، فَقُلْتُ : إنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ ؟ قَالَ : سأنْظُرُ فِي أمْرِي . فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ ثُمَّ لَقِيَنِي ، فَقَالَ : قَدْ بَدَا لِي أنْ لاَ أتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا . فَلَقِيتُ أَبَا =بَكْرٍ فقلتُ : إنْ شِئْتَ أنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بنْتَ عُمَرَ ، فَصَمتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إلَيَّ شَيْئاً ! فَكُنْتُ عَلَيْهِ أوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ ، فَلَبِثَ لَيَالِيَ ثُمَّ خَطَبَهَا النَّبيُّ ﷺ فَأنْكَحْتُهَا إيَّاهُ . فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : لَعَلَّكَ وَجَدْتَ (غَضِبْتَ) عَلَيَّ حِيْنَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أرْجِعْ إلَيْكَ شَيْئاً ؟ فقلتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَإنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أنْ أرْجِعَ إلَيْك فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ إلاَّ أنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَرَهَا ، فَلَمْ أكُنْ لأُفْشِيَ سِرَّ رسول الله ﷺ وَلَوْ تَرَكَهَا النَّبيُّ ﷺ لَقَبِلْتُهَا " [رواه البخاري]

(2) روى ابن سعد في الطبقات والحاكم في المستدرك وابن عساكر في تاريخ دمشق : عن عمرو بن سعيد بن العاص قال: قالت أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) : رأيت في النوم كأن عبيد الله بن جحش بأسوأ صورة وأشوهه، ففزعت. فإذا هو يقول: حين أصبح: يا أم حبيبة ! إني نظرت في الدين، فلم أردينا خيرا من النصرانية وكنت قد دنت بها، ثم دخلت في دين محمد، فقد رجعت إليها. فأخبرته بالرؤيا،فلم يحفل بها، وأكب على الخمر حتى مات. فأرى في النوم كأن آتيا يقول لي: يا أم المؤمنين ! ففزعت فأولتها أن رسول الله ﷺ [يتزوجني] فما هو إلا أن انقضت عدتي.=

فكانت النجدة الإنسانية الدافع وراء زواج النبي ﷺ بها وليس المتعة والاستزادة من النساء ، كما أراد النبي ﷺ أن يصل بينه وبين أبي سفيان بعلاقة نسب عسى أن يهديه ذلك للدين ، بما يعطف من قلبه ، ويرضي كبريائه .

وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة : سنة النبي ﷺ في معاملة جميع الناس ولا سيما اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد المحامين والأقرباء ، ولهذا خيَّر صفية الإسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها = فاختارت الزواج منه ﷺ [1] وآية الآيات في رعاية الشعور الإنساني أنه ﷺ لام بلالاً لأنه مر بها وبابنة عملها على قتلى اليهود . فقال له غاضباً : " يا بلال أنزعت منك الرحمة حتى تمر بامرأتين على قتلاهما " [2]

واحتقرتها زينب فلقبتها يوماً باليهودية ، فهجرها شهراً لا يكلمها ليأخذ حق هذه الغريبة ، ويدفع عنها الظلم . [3]

=فما شعرت إلا ورسول النجاشي على بابي يستأذن ! فإذا جارية له يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلت علي، فقالت: إن الملك يقول لك: إن رسول الله كتب إلي أن أزوجكه. فقلت: بشرك الله بخير، ..." هذه القصة باطلة ومنكرة، قال الذهبي في (السير) [٢/ ٢٢١] بعد أن ذكر القصة: (وهي منكرة) .

(1) ذكر البخاري في صحيحه : " سَبَى النَّبِيُّ ﷺ صَفِيَّةَ فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَقَالَ ثَابِتٌ لِأَنَسٍ بن مالك مَا أَصْدَقَهَا قَالَ أَصْدَقَهَا نَفْسَهَا فَأَعْتَقَهَا "

(2) رواه ابن كثير في " البداية والنهاية " عن ابن إسحاق : " أنزعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما " .

(3) هذه الرواية لا أساس لها من الصحة أما الرواية المعتمدة فهي : عن صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ كَلَامٌ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ أَلَا قُلْتِ فَكَيْفَ تَكُونَانِ خَيْرًا مِنِّي وَزَوْجِي مُحَمَّدٌ وَأَبِي هَارُونُ وَعَمِّي مُوسَى وَكَانَ الَّذِي بَلَغَهَا أَنَّهُمْ قَالُوا نَحْنُ أَكْرَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا وَقَالُوا نَحْنُ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ وَبَنَاتُ عَمِّهِ " [ضعيف التِّرْمِذِيُّ]

تكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد ﷺ عن أسباب اختياره لنسائه وجمعه لهذا العدد من الزوجات في وقت واحد .

ولا حرج على رجل قويم الفطرة أن يلتمس المتعة في زواجه ، ولكن الذي حدث فعلاً أن المتعة لم تكن أبداً مقدمة في اختيار النبي ﷺ واحدة من زوجاته قبل البعثة أو بعدها ، وفي أيام الشباب أو بعد تجاوزه سن الكهولة ، إنما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن إلى الإيواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التي تقتضي باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب من أصدقائه وأعدائه ولا استثناء في هذه الصفة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته حتى التي تزوج بها بكراً متصفة بالجمال وهي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

إلا أن المُشَهْرِّين نسوا كل حقيقة من هذه الحياة الزوجية التي سجِّلت لنا بأدق تفصيلاتها ، ولم يذكروا إلا شيئاً واحداً حرَّفوه عن معناه لفتروا على النبي ﷺ وذلك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات .

ونسوا أنه اتصف بالطهر والعفة في شبابه ، فلم يفعل ما كان مباحاً في الجاهلية من اللهو في غير مشقة عندهم ولا عيب .

ونسوا أنه لما تزوج في نحو الخامسة والعشرين كان زواجه بسيدة في الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين . ونسوا أنه اختار أحساباً في حاجة إلى التآلف والرعاية ، ولم يختر جمالاً مطلوباً للمتاع .

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوه من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير [1] ولم يجاوز حياة القناعة أبداً لإرضاء نسائه وإرضاء

---

(1) عن أَبي هريرة: أَنَّهُ مَرَّ بِقَومٍ بَيْنَ أيدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ (مَشْوِيَّةٌ) ، فَدَعَوْهُ فَأَبَى أنْ يأْكُلَ . وقال : " خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ ." [رواه البخاري]

نفسه ، ولو شاء لما كلفه إرضاء نفسه وإرضائهن غير القليل بالقياس إلى ما في يديه. نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه السلام ، فلماذا نسوه ؟!

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا ، وأن يَتَقَوَّلوا ، وأن ينحرفوا عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أسهل لهم من إخفائها . لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ، ولم يتعمدوا نسيانها .

الوجهة الخلقية

ونستطرد إلى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل فيه لأننا نَقْصُر هذا الكتاب على عبقرية محمد ﷺ وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية في تعدد جوانبها ، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الإسلامية في تفصيلها ولا حكمة الأصول الدينية على اختلافها .

فأقل ما نقوله في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبي ﷺ لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها ، أو مباحاً يختاره من يختاره وله سَعَة عنه ، وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمَّة في بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات ، ولن ينكر هذا إلا متشدد ينكر الحقائق ويتجاهل المحسوس الظاهر للعيان .

ففي حياة محمد ﷺ الخاصة لا ينكر أحد أن زواجه بنسائه قد كان خيراً لهن من المذلة والرجوع إلى الكفر والضلال ، وكان خيراً من قطع العلاقات التي وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل في نفع الدين والمتدينين به ، وهي ضرورة يلجأ إلى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمَّة ، بل أمم تمارس الحياة الدنيا ، وكل إمام عليم بطبائع الناس .

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع الدينية الحديثة جميعاً، ثم تحلَّلت منها بإباحة الزنى ، وعلاج مشكلة الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج، أو خارج نطاق البيت والأسرة ، ولو اهتدت هذه الشرائع المدنية إلى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات ، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات .

فلا شك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من تركها في هذه الدنيا بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو يريد أن يرزق بذرية صالحة هي الغرض الأكبر من كل زواج ، ولولاها لزال في المجتمع الإنساني أساس كل زواج .

ولا شك أن الجمع بين المرأة غير المرغوب فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين عشيقة أو عدة عشيقات .

ولا شك أن تسهيل الزواج وخاصة في أوقات الحروب التي ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الإنساني وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التي لا تنفع النوع ولا تنفع الأخلاق ، ولا ترفع مكانة المرأة في عصمة رجل أو في متناول كثير من الرجال .

هذا شيء جائز ، بل هذا شيء أكثر من جائز لأنه واقع لا عدول عنه ولا حيلة فيه، ولا يلام من يواجهه بحل أكرم من حلول شتى ، بل اللوم عليه أن ينظر في شئون العالم ثم يغمض عينيه عن حقائقه التي تصدم كل عين .

ومن السهل على من أراد أن يحكم العالم في خياله بالفضائل التي تحلو له وترضيه! وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذي يحكمه ويرضى بما ارتضاه، وقد علم هذا كل رجل واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التي واجهت محمداً ﷺ بادئ الرأي على غير مثال سابق يقتدي به ، إلا ما ألهمه الله تعالى .

ماذا صنع نابليون في عصرنا الحديث ؟

وإنما نضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلاباً في العادات يشبه نشأة الدين أيام الدعوة المحمدية ونعني به الثورة الفرنسية ، وشهد هبوطاً في الأخلاق والآداب يشبه الهبوط الذي أصيب به العرب في أواخر عهد الجاهلية ، وأسس دولة ، ونظر في سن قانون ، وحاول أنواعاً من الإصلاح .

نابليون قد طلَّق امرأته ، وأجبر علماء المسيحية على قبول هذا الطلاق ، وقد اشتهرت له علاقات بعشيقات متعددات غير العشيقات المجهولات . ونابليون يقول عن المرأة : " لقد صنعت كل ما وسعني أن أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى . إلا أنك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج ، وإلا امتنع الناس عن الزواج إلا القليل " .

" ولقد كان للرجل في العهد القديم (التوراة) جوارٍ يتمتع بهن إلى جانب الزوجات، ولم يكن أبناء الزنى محتقرين بين الناس احتقارهم اليوم ، وإنه لمن المضحك أن يُحْظَر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة . فتحمل هذه الزوجة الواحدة، وكأن الرجل في أثناء حملها أعزب أو عقيم .

واليوم لا توجد جوارٍ يتمتع بهن الرجال ، ولكنهم يعاشرون العشيقات وهن أقدر على الإفساد .

" إنهم في فرنسا يعطون النساء فوق حقهن من التعظيم ، وإنما الواجب ألا ينظر إليهن كأنهن مساويات للرجال ،فما هن في الحقيقة إلا آلات لإخراج الأطفال.

"وقد تمردن أثناء الثورة الفرنسية ، وعقدن الجماعات لأنفسهن وبدا لهن أن يؤلفن فرقاً منهن في الجيش "

" وكان لا بد من منعهن لأن المجتمع الإنساني معرَّض للفوضى إذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهي مكانهن الحق في الحياة ، نعم إن المجتمع يكاد يتمزق . "

" وعلى كل جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة ، فإذا قامت الحرب بينهما فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض والسود !

" إن الطلاق لأضر بالمرأة دون شك فالرجل الذي يجمع بين زوجات لا يبدو عليه من ذلك أثر كالأثر الذي يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال . إنها تضعف كل ضعف . وكذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية في العصر الحديث . فكيف اعترف بها " لنين " في الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية ؟ حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج . فلا رابطة بين الزوجين أقوى من رابطة الرفيقين في الفندق أو الطريق، وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملائكة إلا الذي جعله على هذا النحو شريعة البهائم .

عقوبة الزوجات

ولا نختم هذا الفصل عن النبي ﷺ في حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات في الإسلام ، وللعقوبة التي اختارها ﷺ لأن عقوبة الرجل في حالة الغضب كمحاسبته لها في حالة الرضى – كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده ، ومكانة المرأة عامة في تقريره .

القرآن ينص على العقوبات الجائزة في حالة النشوز ، وهي العظة والهجر في المضاجع والضرب والطلاق بإحسان ﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا﴾ [النساء: 34] ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١] .

والنبي ﷺ لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها . ولم يضرب أبداً واحدة منهن ، ولم يُرْو عنه أبداً أنه ضرب أو نَهَر خادماً فضلاً عن زوجة [1] بل رُوِيَ عنه ﷺ ما ينفي ذلك مما عاشروه ولازموه " [2]

بل كان ﷺ يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال : " أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخرة ! " [3]

فما نصَّ القرآن عليه من عقوبة الضرب فإنما نصَّ عليه لعلاج النشوز الذي لا يستقيم بغيره ، وقيَّده المفسرون بشروط تمنع الإيذاء وتحصره في القدر الذي يستقيم عليه الجزاء .

فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره ، وقد يعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء لا يكرهنه وليس من الضروري أن يكن من أولئك العصبيات المريضات اللاتي يشتهين الضرب كما يشتهي بعض المرضى ألوان العذاب .

---

(1) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : " خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا " [صحيح مسلم] عائشة رضي الله عنها قالت : مَا ضَرَبَ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – شَيْئاً قَطُّ بِيَدِهِ ، وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِماً ، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ ، إِلاَّ أن يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَى ، فَيَنْتَقِمُ للهِ تَعَالَى . رواه مسلم (رواه مسلم] .

(2)"عن مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : مَا حَقُّ الْمَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ؟ قَالَ :« أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ وَيَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَى وَلاَ يَهْجُرَ إِلاَّ فِى الْبَيْتِ وَلاَ يَضْرِبَ الْوَجْهَ وَلاَ يُقَبِّحَ " [صحيح البيهقي وغيره] .

(3) هذا الحديث أخرجه عبد الرزاق ولم أقف على صحته أما الأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع فهي قول النبي ﷺ " أَلا عَسَى أَحَدُكُمْ أَنْ يَضْرِبَ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الأَمَةِ ، أَلا خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ." [صححه الألباني] وقوله ﷺ : " يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ العَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَومِهِ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

إنما العقوبة التي آثرها النبي ﷺ هي الهجر الطويل أو القصير ، بعد النصح والعتاب الجميل .

والهجر ، وخاصة الهجر في المضاجع ، عقوبة نفسية بالغة ، وليست كما يعتقد البعض عقوبة حسية ، تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة فإن فوات السرور والمتعة أياماً لا يؤلم المرأة هذا الإيلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق .

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله في كتابه ، (نداء للجنس اللطيف) : "أما الهجر : فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ، ويشقُّ عليها هجره إياها ، ولا يتحقق هذا بهجر الفراش ، ولا بهجر الحجرة التي يكون فيها فراش النوم ، وإنما يتحقق بهجر جماع الزوجة ، وتعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة في العقوبة لم يأذن بها الله تعالى . وربما يكون سبباً لزيادة الخصام ، وفي ترك جماع الزوجة معنى لا يتحقق بهجر الفراش أو البيت الذي هو فيه ، لأن نوم الزوجين في فراش واحد مع ترك الزوج جماع زوجته هو الذي يُهيِّج شعور الزوجية ، فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر ويزول اضطرابها الذي أثارته المشاكل قبل ذلك ، فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها رغم نومه معها في فراش واحد فإن ذلك الشعور والسكون النفسي يدعوها إلى سؤاله عن السبب ، ويهبط بها من المخالفة إلى وصف الموافقة ، وكأني بالقارئ وقد جزم بأن هذا هو المراد " .

والذي نراه أن الأستاذ رشيد ، رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية ، وأن الحكمة في تفضيلها أعمق جداً من ظاهر الأمر كما رآه الأستاذ فأبلغ العقوبات ولا ريب هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره وتشككه في صميم كيانه: في المزية التي يعتز بها ، ويحسبها سبب وجوده وتكوينه.

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل ، ولكنها لا تحزن لذلك ما علمت أنها فاتنة له ، وأنها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق

إليها ورغبة فيها ، فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشاء من سحر وفتنه ، وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم ، ويكفيها أنها لا تُقاوَم بديلاً من القوة في الأجساد والعقول ، فإذا قاربت الرجل وهى في أشد حالاتها إغراء بالفتنة ، ثم لم يهتم بها ، ولم يؤخذ بسحرها ، فإنه يقع في نفسها أن تشك في صميم أنوثتها وأن ترى الرجل في أقدر حالاته مستحقاً للهيبة وخضوعها ، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتصبر بالفتنة ولا بغلبة الرغبة ، فهو يملك أمره إلى جانبها وهى إلى جانبه لا تملك شيئا إلا أن ترجع إلى التسليم .

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد ، بل هذا هو الصراع الذي تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح ، لأنها جربت أمضى سلاح في يديها فارتدت بعده إلى الهزيمة التي لا تكابر نفسها فيها .

إنما العقوبة إبطال العصيان ، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه ، والهجر في الفراش يؤدي إلى هذا الإحساس . (١)

على أن عقاب النبي ﷺ لزوجاته كان من الندرة بحيث لا يُذْكر لولا ما تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته الخاصة والعامة على السواء ، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذي يصل المقطوع ويصلح الممزق .

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبي لمسلمات منه عقاب زوج لزوجات ، وهو في حالتي عقابه وإحسانه إنسان على أكمل ما يكون الإنسان من رحمة وتعقل وعدل .

---

(1) راجع مناقشة رأي رشيد رضا ، والعقاد حول الحكمة من هجر الزوج زوجته العاصية له في الفراش في التعليق الختامي .

وإذا حارت الأدلة في قوام تلك الحياة الزوجية ، فالدليل الذي لا يحار : أن ينقضي نحو أربعين سنة عليها وهي على ذلك الصفاء والولاء الذي لم يعرف مثله في علاقات الرجال والنساء : هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة ، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب ، وراحة النفوس ، وحب الخير، ومبادلة العطف والتعظيم .

***